عبرة وفاء

الرافـــعى

للأستاذ كامل محمود حبيب

أليس الحق أن العيش فان وأن الحى غايته الممات
(شوقى)

فقدتك - يا رافعى - فقدت صديقاً، والأصدقاء قليل؛ وأخاً كبيراً طيب القلب، والقلوب هواء؛ وأباً شفيقاً فيه الرحمة والحنان؛ وأستاذاً غمرنى نور علمه ونور أدبه

كنتَ وكنا ... ففتحت على عينيك مغاليق نفسى، فأحسست كأنى ألمس روحك تتدفق فى روحى، فهفوت نحوك أجد فى حديثك اللذة والمتعة، وأجد فى نصيحتك الهداية والنور ... فلما فقدتك فقدت قلبى، وأذهلتنى الصدمة فخرجت عن صبرى إلى حزنى؛ وكدتُ أشق عليك الجيب، وألطم الخد. ولكنّ الايمان يارافعى ... ولكن الايمان ...

وانطويتُ على نفسى ألتمس فى عبرات حرّى أسكبها، أشيعك بها إلى الدار الأخرى ... ألتمس فيها بعض ما يخفف عنى بَرْح الشوق، وألم الفجيعة؛ فما وجدتُ فيها سلوة ولا وجدتُ عزاءً، فاستحوز على الأسى والشجن، ونسيتُ ما كنتَ تقوله حين تزعزعنى الأيام: «الايمانَ، يا بنيَّ، الايمان ...»

وخرجتُ إلى الناس فرأوا فى أثر الحزن والضنى فى سواد لبستُه، وفى تجهم وعبوس اكتسى بهما وجهى، وفى عبرة تترقرق فى محجرىّ أجهد أن أكفكفها لأخفى ضعفى، وفى جفونى قرح من أثر البكاء والسهر؛ فما استطاع واحد أن يقول شيئاً، غير أن نظراتهم كان فيها الرثاء والشفقة ... ثم انطووا عنى جميعاً، وخلفونى وحيداً، أحس ألم الوخزة فى قلبى ... قلبى وحده

ومرّ رجل يبسم وعلى وجهه سمات الفرح فهاجت فى نفسى الذكرى فبكيت، ونظر هو إلى حزنى ثم استغرق فى الضحك، لا يرعوى ولا يرحم؛ فقلت لنفسى «ويل للشجىّ من الخلىّ»

وجاء صديق يريد أن يرفه عنى، ويطمع فى أن ينزعنى من آلامى، بعبارات فاترة ثقيلة لا معنى فيها ولا روح؛ ولكنها أثارت شجونى، فانتفض قلبى، وارفضّ جبينى عرقاً، وانهمرت عبراتى؛ فانطلق وهو يرثى لحال صاحبه ... صاحبه المسكين الذى لا يسمع ولا يعى ... وماذا يعزينى عنك يا رافعى وأنت ... فى دمى وفى روحى؟

وجلستُ إلى كتاب من كتبك أنشق عبير روحك الطاهرة، وأتنسم من ألفاظك روح قلبك الخالص؛ فارتدت الذكرى تبعثك فى خيالى، فتوقظ فى نفسى الألم والحسرة لأنى استشعرت فقدك فى قلبى

إن فى النفس عواطف لا يرقى اليها القول، وفى الفؤاد نوازع لا يستطيع أن يكشف عنها المنطق، أحس بها جياشة ثائرة فانطوى على أحزان تأكل قلبى وتضطرم فى جوانحى ... ثم لا أجد عاصما سوى الدمع ...

* * *

وجاء النعى يقول: إنك بت تحت الثرى، وإن تاريخك على الأرض قد تم، فوجمتُ، وجاء الظلام يترع أيامى فى وقت رفّ علىّ فيه الأمل الحلو حين خيل إلىّ أنى أنتظر لقياك، ولكن ... فجعت مرتين: فيك وفى أملى ...

وطال بعدك ليلى حين لج بى الأسى، ونأت عنى مسراتى حين لازمتنى أشجانى، وغدوتُ إنساناً غيرى فيه اللوعة والأسف.

لقد عرفتك فبعثت فى روحى الحياة والنور، ونفثتَ فى قلبى الايمان والسمو؛ والآن ... الآن رانت على حياتى ظلمات وظلمات فما أستطيع أن أهتدى، والبحر يزخر حوالى فلا أرى الشاطئ الأمين، فأين يدك تجذبنى إليه، وأين قلبك ينير لى الطريق ... ؟

تركتنى وأتراحى، وفى القلب شوق، وفيه شكاية، فتى تغسل دموعى هذه الأشجان لأبدو للناس رجلا فيه الصبر والسلوان.

* * *

لفتك يد المنون فى كفن لتنشر فى الأفئدة اللوعة والأسى